

أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس

في مسجد الكوفة

الأستاذ المساعد الدكتور

حيدر محسن الشويلي

جامعة ذي قار كلية التربية للعلوم الصرفة

haidermuhson@gmail.com

الباحث

عبد الكريم جعفر الكشفي

عضو اتحاد ادباء وكتاب العراق

k1kk21951@gmail.com

الملخص:

يعد مسجد الكوفة من أهم المساجد لدى المسلمين بعد المساجد الثلاثة الأولى عند المسلمين في المكانة والسمو، وهي (المسجد الحرام، مسجد النبي والمسجد الأقصى) كما يعد أحد أقدم المساجد المقدسة لدى الشيعة الإمامية وأهمها نظراً لإستقطاب الوافدين من العلماء وطلبة العلم قديماً وحديثاً، وتفيد الروايات بأن أول من وضع الحجر الأساس للمسجد وشيده بمساحة واسعة هو نبي الله آدم عليه السلام، ثم أعاد إعمارها النبي نوح عليه السلام بعد الطوفان، كما قام المسلمون في سنة ١٧ هـ عند أول تواجدهم في الكوفة بتعمير المسجد ودار العمارة فيه، وقد ازدهرت الكوفة حينما نقل إليها الامام علي عليه السلام الخلافة ومعه عدد كبير من الصحابة الابرار وذلك بعد انتصاره في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ، وعاش فيها ٧٠ صحابياً ممن شهدوا بدر كما عاش فيها عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وغيرهم من الأصحاب الاجلاء، فضلاً عن علماء كثر يصعب احصائهم.

وحين وطأت قدما الإمام جعفر الصادق عليه السلام المولود (١٧ ربيع الاول/٨٣ هـ) والمستشهد في (٢٥ شوال ١٤٨ هـ) مسجد الكوفة فجر ينابيع المعرفة العلم والحكمة، وفتح للناس أبواباً من العلوم لم يعهدها من قبل إذ ملأ الافاق بعلمه الجم وثقافته الواسعة، كما انه أسهم في اعداد قيادات واعية ودعاة مخلصين يحملون رسالة الإسلام المحمدي الأصيل

إلى جميع الحواضر الإسلامية إذ أسهمت في نشر فكر أهل البيت عليهم السلام وارساء أحكام الشريعة وذلك من خلال تشييطه لحلقات الدرس في مسجد الكوفة والذي ازدهر في زمنة ازدهار الامثال له، إذ ركزت هذه الحلقات على تطوير العلوم في مختلف الاختصاصات، من فلسفة وعلم الكلام والطب والرياضيات والكيمياء علاوة على وضع القواعد والأصول الاجتهادية والفقهية كأساس مهم للتشريع الإسلامي من ضمن بقاءه واستمراره. ومواجهة خطر اعداء الاسلام بأسلوب سلس وهدوء رسالي جميل وفند آراء المخالفين وأثار حب واحترام مريدي حلقات الدرس في مسجد الكوفة حتى من قيل الاعداء والمخالفين.

لقد واجه مجتمع الحضارة الاسلامية في الكوفة ايام سكن الامام الصادق فيها، واجه تحدياً ثقافياً وفكرياً كبيراً، إذ ازداد احتكاك المسلمين بالمجتمعات والثقافات الاخرى، بفعل الفتوحات في الشرق باتجاه بلاد فارس والهند وما تحمله من ثقافة وحضارة، وباتجاه الشمال، باتجاه بلاد الروم وبقايا الحضارة اليونانية. فدخلت الكتب ونشطت حركة الترجمة، وبدأ المسلمون يتعرفون لأول مرة على افكار غريبة تثير مسائل عديدة.

من هنا ظهر الدور الرسالي والثقافي للإمام الصادق، عليه السلام، فظهر في زمنه التخصص في العقائد، وفي اللغة العربية، وفي الفلسفة، وفي الكيمياء، والطب وغيرها من العلوم التي كانت تدرس في حلقات درس الامام الصادق في مسجد الكوفة، ان التعامل الصحيح والاخلاق الجمة والطريقة الحكيمة في التعامل مع أهل العلم، هي التي جعلت الآلاف من طلبة العلم آنذاك يلتفون حول الإمام، وقد قطعوا المسافات البعيدة للوصول الى منبع العلم الحقيقي، وأدى هذا الامر إلى ازدهار حلقات الدرس في مسجد الكوفة ونشر العلوم الاسلامية فقد ورد في رجال الطوسي عن الحسن بن علي الوشا في حديث أنه قال: أدركت في مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد، وهنالك إجماع من المؤرخين والعلماء على أن حوالي أربعة آلاف اسم راوي يتقلون عن الإمام، عليه السلام، وهؤلاء من الثقة فقط، بينما يبلغ عدد تلاميذ الإمام حوالي عشرين ألف تلميذ، وان هذا الامر زاد من أهمية هذه المدرسة؛ لأنها شملت أتباعاً من غير الشيعة أيضاً، ما أفسح المجال لنشر التعاليم الإسلامية الصحيحة، والتقليل من حجم الانحراف، الذي وقع في الإسلام بسبب ما جرى على أهل البيت عليهم السلام ولأهمية هذا الموضوع دار بحثنا حول المباحث الآتية:-

المبحث الأول: نظرة على مسجد الكوفة ومكانته.

المبحث الثاني: حلقات الدرس وأهميتها في مسجد الكوفة.

المبحث الثالث: حلقات الدرس في مسجد الكوفة وأثر الإمام الصادق في ازدهار العلوم الإسلامية.

المبحث الأول

نظرة على مسجد الكوفة ومكانته

الكوفة هي البقعة التي بارك الله فيها، فأصبحت بيتاً ومعبداً لعدد كبير من الأنبياء والصالحين منهم نبي الله آدم وابنه ونبي الله شيت هبة الله، وعدد من الطاهرين الصالحين والأولياء، فهي بيت ومعبد نبي الله نوح، وفيها مرسى سفينته عليه السلام، ومنها فار التنور، واليها يحن الأنبياء والأولياء والصالحون والمخلصون، وهي من ضمن البقعة التي اشتراها نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام بمائة ناقة وسميت بانقيا وتعني بالأرامية با اي مائة ونقيا اي ناقة^(١).

وبعد الفتوحات الإسلامية في العراق وانهزام الفرس الساسانيين، تحول المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى موضع الكوفة، بعدما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه عليه بالتحول إليها، وكانت من أفضل المناطق التي استقرار فيها، حيث تم تمصيرها وجعلها مصراً، أي: بلداً، وبنى فيها المسجد الجامع، ومكان هذا المسجد هو الموضع الذي تحدثت الروايات عن أنه مهبط الملائكة، وحيث خط آدم عليه السلام مكاناً للعبادة، وموضع صناعة سفينة نوح عليه السلام، وقد استعان والي الكوفة بعمار بن ياسر، وبأبي الهياج الأسدي، أحد رواة أمير المؤمنين عليه السلام، لتخطيط الكوفة، ثم اختطوا المسجد على عدد مقاتلتهم، أي بحدود أربعين ألف إنسان، وبنوا لسعد قصراً وهو دار الإمارة الملاصق للمسجد والمائلة أطلاله اليوم جنوبه، والذي هو غير شرعي لأنه بني بطابوق حرام حيث هدم سعد ابن ابي وقاص قصر الخورنق والسدير وسرق طابوقهما، وقد رفض الإمام علي عليه السلام دخول هذه الدار لأنها بنيت بطابوق حرام، وأصبحت الكوفة محطة المجاهدين ومستقر القبائل، وحلقة الوصل بين المدينة المنورة، عاصمة المسلمين والمناطق المحررة، وكانت مركزاً تموينياً للجيش التي تحارب في الجبهات العسكرية في العراق والمناطق الشرقية. ويعد مسجد الكوفة احد المساجد الاربعة في الاسلام التي لها قدسية ومكانة روحية كبيرة، وأشار الامام علي عليه السلام بقوله: ((انه

احد المساجد الاربعة التي تعظم، ولان اصلي فيه ركعتين احب الي من ان اصلي عشرة في غيره الا في المسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)).^(٢).

وبقيت بقعة هذا المسجد المباركة منتظرة نور حبيبها المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى تشرفت بتلك الطلعة البهية لتقام في قلبها صلاة الجماعة بإمامة المصطفى الطاهر صلى الله عليه وسلم في حادثة الاسراء والمعراج، وبعد برهة من الزمن جاءت طلائع المسلمين فاتحة بلاد النهرين وارض السواد المباركة ليتم اعادة بناء هذا المسجد المبارك والصرح الالهي العظيم، ولكنه بقي ينتظر بلهفة مقدم امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام لتلامس جبهته الشريفة صعيد ثراه الطاهر وليتعطر هواه بأنفاس سيد اولياء الله ووالد الائمة المعصومين حجج الله على خلقه، حيث نقل الامام علي عليه السلام مقر خلافته اليها، واصبح مسجدها مركز اشعاع لكل المسلمين، ومن على منبره الشريف سمع الناس كلامه وخطبه وارشاداته وتوجيهاته التي صارت دستوراً للمسلمين. وفي محراب مسجد الكوفة تحضبت الشبية المقدسة شبية الامام علي عليه السلام من دماء الرأس الشريف، بسبب الاعتداء الاثيم على الامام علي عليه السلام من قبل الشقي عبد الرحمن بن ملجم عام ٤٠ هج، حيث انتقل الى دار الخلود، وفقدت الكوفة مركزها القيادي بعد استشهاد الام علي عليه السلام، وسيطرة الشام على زمام الامور، واصبحت الكوفة مصراً بعيداً عن القيادة، وقد اضعفها بصورة اكبر بناء الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط عام ٨٣ هج. ولولا وجود الامام علي عليه السلام، وبفضل عددها وتعدد وظائفها ما كان لها من دور اجتماعي وعسكري وسياسي^(٣).

ويجنب هذا المسجد المقدس بيت أمير المؤمنين وهو من عضادة المسجد اليمنى إلى ساحته والملاصق لمحراب الإمام عليه السلام وكان يجنب المحراب باب يمر إلى قصر الإمارة التي لا تزال أطلاله ماثلة اليوم وينتهي إلى بيت الإمام عليه السلام، وهو قريب من دار الإمارة على بعد ٨٥ متراً ولا يزال البيت موجوداً وعليه قبة خضراء، وهذا البيت يقصده المؤمنون للتبرك به.

ولمسجد الكوفة ابواب خمسة هي:-

١- باب كندة: وهي من الابواب المعروفة سميت بذلك لأنها قريبة من منطقة كندة احدى احياء الكوفة، ومنها خرج الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام حين تفرق الناس عنه، وكانت كل الأبواب تفتح على الرحبة، وهي ساحة يبدو أن مكانها كان بين

المسجد وبيت الأمير عليه السلام الذي تقع بجواره الآن أطلال قصر الإمارة.

٢- باب السُدة: وهو الذي كان يدخل منه أمير المؤمنين عليه السلام، وموضعها على مقربة من الحراب، ويُفضي منها إلى بيت الأمير صلوات الله عليه مروراً بجانب قصر الإمارة.

٣- باب الحُجّة عليه السلام: في الجانب الغربي من المسجد.

٤- باب الثُعبان: وهو المعروف الآن باسم باب الفيل: وفي سبب التسمية وكما ورد في المصادر المعتبرة هو: بينما أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة، إذ ظهر ثُعبانٌ من جانب المنبر وجعل يجرّ ويرقى، حتى دنا من أمير المؤمنين عليه السلام، فارتاع الناس من ذلك وهمّوا أن يدفعوه عن الإمام عليه السلام، فأوماً بالكف عنه، فلما صار الثُعبان على المنبر رقى إلى المرقاة التي عليها الإمام، ثم قام الثُعبان ثم انحى الإمام على الثُعبان، فتناول الثُعبان إليه حتى التقم أذنه، فتحيّر الناس من ذلك وهو يحدثه، فسَمِع من كان قريباً كلام الثُعبان، ثم زال عن مكانه، وجعل أمير المؤمنين عليه السلام يُحرّك شفّتيه، والثُعبان كالمُصغي إليه، ثم سار الثُعبان، وعاد أمير المؤمنين عليه السلام إلى خطبته وتمّمها، فلما فرغ نزل من المنبر، فاجتمع إليه الناس يسألونه عن حال الثُعبان والأعجوبة فيه، فقال عليه السلام: ((ليس ذلك كما ظننتم، وإنما كان هذا حاكماً على الجنّ، فالتبست عليه قضية وصعبت عليه فجاء ليستفهمها فأفهمته إياها، فدعا لي بالخير وانصرف))، وكان الثُعبان قد دخل من الباب عكس القبلة، فسُمي باب الثُعبان واشتهر بذلك، فكَرِه بنو أمية ظهور هذه الفضيلة لأمر المؤمنين عليه السلام، فربطوا في ذلك الباب فيلاً وراموا أن تُنسى تلك الفضيلة، فعرف باب الفيل .

٥- باب الأتماط وهو احد الابواب المعروفة^(٤): وهو يُحاذي باب الثُعبان، لكنّه سُدّ لاحقاً.

٦- باب الرّحمة: افتُتح في العام ١٩٦٨م.

وكان لكلّ قبيلة من قبائل الكوفة باب باسمها، لكن بتداول الأيام والحوادث المتعاقبة سُدّت الأبواب ولم يبقَ منها إلّا باب الثُعبان، وباب الرّحمة الذي افتُتح حديثاً.

أما مقامات مسجد الكوفة، وهي المواضع التي اتخذها الأنبياء أو الأئمّة المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين مكاناً للعبادة والصلاة، فهي كثيرة ومن هذه المقامات:-

١- مقام النبي محمد بن عبدالله عليه السلام أو مقام المعراج: يقع في وسط المسجد، قريباً من المزولة وهي رخامة بحدود مترين كانت وسيلة لتحديد الزوال في صلاة الظهر، ويرجع أنه الموضع الذي نزل وصلى فيه رسول الله عليه السلام في رحلة الإسراء، كما في الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام.

٢- مقام أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه المحراب، وهو في غرفة واسعة، تضم مقام نبي الله نوح عليه السلام، وفيه كان يصلي أمير المؤمنين عليه السلام وفيه استشهد سلام الله عليه، ومن هنا سمي المكان بالمقام لأنه عليه السلام كان يُقيم صلاته فيه. وكان بجانب المحراب باب يمر إلى قصر الإمارة التي لا تزال أطلاله ماثلة الى اليوم. وهذا المحراب يتعاهده المؤمنون بالتبرك، وقد نصب عليه شبّاك من الفضة والذهب المطلي، وقد أنشئ حديثاً بناءً كبير في موضع المحراب.

٣- مقام الإمام زين العابدين عليه السلام: وهو عند الأستوانة السابعة، على مقربة من محراب الأمير عليه السلام، ويبدو أن أبا حمزة الشمالي تعرّف إلى الإمام في هذا المكان، ففي الرواية عن أبي حمزة، قال: ((دخلتُ مسجد الكوفة فإذا أنا برجل عند الأستوانة السابعة قائم يصلي يحسن ركوعه وسجوده ثم انقفل وخرج من باب كندة)) فتبعه أبو حمزة وسأل أحدهم عنه، فقال له: هذا علي بن الحسين عليه السلام.

٤- مقام الإمام الصادق عليه السلام: على مقربة من مدخل مرقد الشهيد مسلم بن عقيل.

٥- مقام نبي الله إبراهيم عليه السلام: وهو عند الأستوانة الخامسة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام ان نبي الله إبراهيم عليه السلام صلى فيه في رواية، ويرجع أنه المقام المقابل لباب الثعبان.

٦- مقام الخضر عليه السلام: ملاصق لمقام إبراهيم عليه السلام. وروى الشيخ الطوسي في الأمالي عن الشيخ المفيد أن أمير المؤمنين كان يصلي في مسجد الكوفة، فدخل عليه الخضر، وقبل رأسه ثم شيعه الأمير عليه السلام إلى خارج المسجد.

٧- مقام آدم عليه السلام: قريباً من مقام الإمام زين العابدين، وهو مقام وفق الله تعالى فيه النبي آدم عليه السلام للتوبة.

٨- مقام نوح عليه السلام: وهو المقام الملاصق لمنبر الأمير ومحراه.

اما الاماكن الاثرية من غير المقامات فهي:-

١- بيت الطّشت أو الطّست: هو المكان الذي برزت منه معجزة لأمير المؤمنين عليه السلام في بنت عزياء كانت قد غاصت في ماء فيه العلق، فوَلجت في جوفها علقَة، فَنَمَت وكَبُرَت مما امتصّته من الدّم، فكبر بطن البنت فحسبها أخوتها حبلَى، فراموا قتلها، فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام ليحكم بينهم، فأمر بستان فضرب في جانب من المسجد وجعلت البنت خلفه، وأمر بقبلة الكوفة ففحصتها، وقالت: إنها حبلَى تحمل جنيناً في جوفها، فأمر عليه السلام بطست من حمأة الطين الأسود الذي أصابته العفونة، فأجلست البنت عليه، فأحست العلقة بذفر الحمأة فانسلت من جوفها نحو الطّست، فظهرت بذلك براءة الفتاة، وفي رواية انه عليه السلام مد يده فأتى بقطع ثلج من جبال الشام وجعله تحت الطست فانسلت العلقة^(٥).

٢- دكة القضاء: وهي الدكة التي كان الامام علي عليه السلام يقضي للناس عليها في المسجد ابان عهده.

٣- المزولة: وهي عمود صخري، أقيم وسط مسجد الكوفة لتحديد وقت زوال الشمس او تحديد صلاة الظهر.

أما المراقد والاماكن المقدسة في الكوفة فهي:-

١- مرقد الشهيد مسلم بن عقيل بن أبي طالب سفير الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة عند واقعة الطف الخالدة .

٢- مرقد المختار بن أبي عبيدة الثقفي وجيه الكوفة المشهور وأحد اكبر مساندي الامام الحسين في واقعة الطف الخالدة.

٣- مرقد الصحابي الشهيد هاني بن عروة الذي قتله عبيد الله بن زياد، لنزول مسلم بن عقيل في داره قبيل واقعة الطف، ولحبه وموالاته للإمام علي عليه السلام .

٤- مزار السيّدة خديجة بنت أمير المؤمنين عليها السلام، وهو مزار مشهور وقريب من مسجد الكوفة من الجهة الشمالية.

٥- وهناك مزار آخر فيه قبران يُنسبان للسيدتين عاتكة وسكينة ابنتي الإمام الحسين عليهما السلام.

٦- مرقد الشهيد ميثم التمار، من خيار أصحاب الأمير عليه السلام، الذي قتله ابن زياد صلباً، ودُفن في ذلك الموضع المعروف بالسبخة، وقد روى جماعة من التابعين عن ميثم التمار، وقد حددوا تاريخ استشهاده عام ٦٠ هجرية اي قبيل استشهاد الامام الحسين ع بأيام قليلة، وقد اشار ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في رجاله الى ميثم التمار وعدد من أصحاب الصادق عليه السلام (٦).

ولا بد ان نمر مروراً سريعاً على مسجد الكوفة في فترة الامام والعصور اللاحقة لحكم الامام علي عليه السلام، فمسجد الكوفة في زمن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ٣٦-٤٠ هجرية، كان مركزاً للحكم ومكاناً للعبادة، ولم يتخذ عليه السلام مقصورةً فيه، ولم يحجز بينه وبين من يأتهم شيء، لكنه اتخذ منبراً للخطابة، وموقعه بجانب المحراب المعروف باسم محراب أمير المؤمنين، كما اتخذ أمير المؤمنين عليه السلام في المسجد دكةً للقضاء، وكانت بجانبها أسطوانة قصيرة كتب عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ النحل: ٩٠. وعلى هذه الدكة حكّم صلوات الله عليه في قضايا عديدة تزر بها كتب الحديث والمصنّفات التاريخية، وقد بانّت على هذه الدكة كثير من المعجزات التي أظهرها الإمام عليه السلام، وعلى إثرها أسلم بعض اليهود. في العصر الاموي المقيت اجريت على المسجد بعض الاصلاحات والتعديلات، وبعد هلاكهم ومجيء سراق الخلافة العباسيين قاموا باستغلال مسجد الكوفة في بداية أمرهم، فجعلوه مركزاً لدعوتهم، فكان يجتمع فيه مناصروهم، وفيه بويح لأبي العباس السفاح، وجعله بادئ أمره مقره ومركز حكمه قبل أن ينتقل إلى مدينته الهاشمية، وفي هذا المسجد برز الدور الكبير للإمام جعفر الصادق عليه السلام، عندما سكن الكوفة سنتين حيث وصل سنا الكوفة لكل الامصار والمدن، وجذبت الكوفة بفضل وجود الامام الصادق فيها جهابذة علوم اللغة واساطين العلماء في العلوم المختلفة والمحدثين والكتاب، وفي العصر العباسي الثاني، عني البويهيون بالعبات المقدسة، واهتموا بعمارته وإرسال الهدايا لها، ومنها مسجد الكوفة، وعندما فرغ عضد الدولة البويهي من تجديد عمارته، دعا العلماء والأشراف والشعراء إلى حضور افتتاحه، وكان بينهم الشاعر الحسين بن الحجاج، فأشاد قصيدته في مدح الامام علي عليه السلام التي مطلعها:-

يا صاحب القبة البيضاء على النجف
من زار قبرك واستشفى لديك شفي ^(٧)

يا صاحب القبة البيضاء على النجف

وبعد البويهيين اهتم بعمارته الصفويون والعثمانيون، إلى أن تداعت عمارته القديمة أوائل القرن الثالث عشر الهجري، فأصلح سوره وما فيه من المقامات المرجع الديني الكبير السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي رضوان الله عليه، وقد شهدت الكوفة ومسجدها المعروف نهضة فكرية ادبية وثقافية قل نظيرها، كما عرفت نحة كبارا سطعت اسماءهم في سماء النحو، فبالإضافة الى الكسائي عرف ابو جعفر الرؤاس المتوفى سنة ١٧٥ هجرية، وثعلب المتوفى سنة ١٨٧ هجرية والذي يعد خاتم الكوفيين واخرون لا مجال لذكرهم هنا^(٨).

المبحث الثاني

حلقات الدرس واهميتها في مسجد الكوفة

يعدُّ مسجد الكوفة قلب التجمعات البشرية في المجتمعات الإسلامية منذ بزوغ نور الإسلام وبداية مراحل تكوين المجتمع المسلم، فقد كان هذا المسجد أول مؤسسه دينية تربوية اجتماعية يتبلور كيانها، ومن حلقات الدرس التي كانت تقام فيه، فبجانب أداء الصلوات الخمس كان موطن تلاوة وتدبر ومعهد علم وتهذيب، ومجلس صلح وقضاء، وملتقى تعاون وتكامل ومكان رأي ومشورة. وللمسجد في المجتمع المسلم عدة وظائف، أهمها الوظيفة الدينية، ثم الوظيفة التربوية، ثم الوظيفة الاجتماعية، وقد كان المسجد يؤدي كل تلك الوظائف، وكذلك الجانب القضائي، حيث يتم فيه الفصل بين المتخاصمين. وقالت العرب كل موضع يتعبد فيه ويطلب العلم والمعرفة منه وتكون به حلقات دراسية لطلب العلم، فهو جامع اي جامع العلم والعلماء، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^(٩).

لقد انشئ مسجد الكوفة سنة ١٧٠هـ/٦٣٦ م على يد سعد بن أبي وقاص، وفي بادئ الامر لم يكن له جدار، ثم عمل له جدار من القصب ثم بني باللبن ثم الحجارة سنة ٥١هـ/٦٧٠ م. وتاريخ هذا المسجد طويل فقد وسع وهدم وبني عدة مرات، وكانت حلقات الدرس محط انظار الناس، وانتظم بها المسلمون من كل حذب وصوب^(١٠).

إن الحديث عن حلقات الدرس العلمية في مسجد الكوفة، وخاصة عندما نور هذا المسجد المعظم الامام الصادق عليه وسلم واسع ومتشعب يتسع مجلدات، وخاصة إذا أردنا استقصاء كل ما يتعلق بهذه المدرسة العريقة ذات العمر الطويل الذي يناهز الألف عام،

والتي خرجت مئات الأعلام من مشاهير مراجع الدين في العالم الإسلامي، وتركت للمكتبة الفكرية نتاجاً ضخماً في الفقه والأصول، والفلسفة الإسلامية والتفسير وعلوم القرآن والحديث ورجاله والتاريخ والأدب، وغيره من التراث الإسلامي. ان مسجد الكوفة وحلقاته عبر تاريخ الكوفة العلمي الطويل جسد من خلال الزخم الفكري تراث أئمة آل البيت عليهم السلام، وما خلفوه من ثروة رائعة متنوعة في شتى العلوم والمعرفة، واستمر هذا العطاء يتدفق جذوة علمية تعايش العصور، وتتسع آفاقها للتطور والنمو الفكري. قال الإمام الصادق عليه السلام عن مسجد الكوفة وحلقاته: ((إن مدينة الكوفة روضة من رياض الجنة))، وقد تشرفت الكوفة بمرقد مثال العلم والمعرفة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الإنسان الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: ((انا مدينة العلم وعلي بابها)). وقد قدر لهذه المدينة المقدسة أن تصبح قديماً وحديثاً محطاً لأنظار العالم الإسلامي يهاجر إليها الآلاف من طلاب العلم والفضيلة للتفقه، والاشتغال العلمي، وتتوجه إليها نفوس الملايين من المسلمين في أقطار العالم الإسلامي كافة.

وعلى مر العصور أصبحت حلقات الدرس العلمية في مسجد الكوفة ثالث معهد علمي ديني عرف عند المسلمين، فكما اشتهرت جامعة القرويين بجامعة فاس أقدم جامعة إسلامية في المغرب، والأزهر الشريف في القاهرة، كذلك اشتهرت حلقات الدرس في مسجد الكوفة، والذي امتد عمرها إلى قرابة ألف عام. لقد كان لهذه الحلقات أثر كبير في انتشار فكر مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام، ذلك التراث الأصيل الذي يمثل التفسير وعلوم القرآن والفقه والحديث وأصول الفقه والفلسفة الإسلامية. وقد ساعد على استمرارية هذه الحلقات و المسيرة الطويلة لها وجود أئمة أهل البيت وخاصة الامام الصادق عليه السلام، واقبال اعداد كبيرة من العلماء الى الكوفة كحاضرة معروفة. وللمكانة العلمية للكوفة وصفت في بحار الانوار وبشائر الرضوان، وكما وردت في قول ابي عبد الله الحسين عليه السلام فيها: ((أن الكوفة جمجمة العرب ورمح الله وكنز الايمان))^(١١).

أهم ميزات حلقات الدرس في مسجد الكوفة:-

١- انها تختلف كثيراً عن سائر حلقات الدرس الإسلامية الاخرى، اذ انها ذات الجذور الأصيلة، والامتداد التاريخي البعيد، إنها تمتاز ببعض الجوانب العلمية والفنية الفريدة.

٢- انها عامة لكل المسلمين، وانها لم تختص بمذهب معين، أو جنس معين، فقد كانت لكل المسلمين في شتى بقاع العالم.

٣- إن الطالب في هذه الحلقات لا يفكر بالمنصب او يفكر بأن ينال شهادة، أو يجتاز عقبة امتحان رسمي ليحظى بوظيفة، إنما يفكر بطلب العلم فقط.

٤- كما أن الطالب في هذه الحلقات حر في اختيار الدرس والمدرس والمادة العلمية، ولم يكن هذا الدافع خوف السلطة الزمنية وضغطها، إنما هي تلبية لدعوة الواجب الديني فقط .

٥- إن التدريس في هذه الحلقات وبكل انواعها مجاني، لا يأخذ عليه المدرس وطالب العلم أجراً، ولا يتقاضى في سبيله راتباً، إنما عمله خالص لوجه الله سبحانه.

٦- إن الطالب في هذه الحلقات يدرس العربية والمعاني والبيان والبلاغة والمنطق كمقدمة لدراسته، ليكون بذلك كله على استعداد للدراسة، وان دراسة العربية يعتمد على فهم الكثير من النصوص القرآنية والسنة الشريفة، ليتمكن من الاستدلال والمناقشة، لذا فان مراحل الدراسة التي يمر بها طالب العلم طويلة، كما يدرس ايضا النحو والصرف والبلاغة والمنطق وربما يضم إلى هذه العلوم دراسة علم الحديث والعلوم الرياضية، وبعض العلوم الأدبية كعلم العروض والبديع والنصوص الأدبية، كل ذلك حسب رغبة طالب العلم، واستعداده للمشاركة بهذه المعارف، وبذلك صارت الكوفة محط الانظار وقبلة العلماء والقادة والولاة والخلفاء، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام حين نظر الى الكوفة فقال: (ما احسن منظرك واطيب قعرك اللهم اجعل قبري بها)^(١٢)، فلبى المليك المقتدر دعواه.

٧- وميزة حلقات الدرس هو عمق البحث ودقته، وسعة أفقه، والحرية الكاملة في نقد الآراء ومناقشتها مهما كان صاحبها، والى هذا النهج الدراسي يعزى السر في تطور الدراسات الفقهية والأصولية في هذه الحلقات للإمام الصادق وعلى مر القرون.

٨- ولعل نظرة واحدة في كتب الفقه والأصول في القرنين الرابع والخامس مثلاً، ومقارنتها بكتب القرون الأخيرة، وبخاصة كتب هذا القرن نعرف مدى التطور

(٤١٦)..... أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة

الذي بلغه البحث العلمي في هذا المسجد والشأن وفي هذه الحلقات.

٩- عندما شرف الامام الصادق مسجد الكوفة ادخل دراسة العلوم الطبيعية مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها.

لقد أعان على ازدهار حلقات الدرس في مسجد الكوفة مغادرة الإمام الصادق عليه السلام المدينة المنورة إلى الكوفة أيام أبي العباس السفاح حيث بقي فيها مدة سنتين، وقد اغتتم الإمام الصادق فرصة ذهبية أوجدتها الظروف السياسية آنذاك، وهي أن الحكومة العباسية ١٣٢- ٦٥٦ هجرية كانت جديدة العهد بعد سقوط الدولة الأموية ولم يكن للعباسيين يومذاك قدرة على الوقوف في وجه الإمام لانشغالهم بتأسيس الدولة، بالإضافة إلى أنهم كانوا قد رفعوا شعار العلويين للوصول إلى السلطة، فلم يكن من مصلحتهم في تلك الفترة الوقوف في وجه ائمة اهل البيت عليهم السلام، فعمد الائمة على نشر علوم جمعة ايام الدولة العباسية الى حين سقوطها على يد المغول ٦٥٦ هجرية، وتخرج من حلقات الدرس في الكوفة ايام الدولة العباسية، الكثير من الاساتذة والطلبة النابغين منهم الحسن بن علي بن زياد الوشاء وابو حنيفة النعمان، ومن أخذ عنه أحمد بن حنبل، حيث روى الكثير عنه في مسند أحمد ومن أخذ عنه عمه زيد بن الإمام الباقر والمعروف بزيد الشهيد وابن الهيثم وغيرهم.

ويعد مسجد الكوفة من اشرف بقع الارض، فقد ورد في تفسير العياشي، عن بدر بن خليل الاسدي، عن رجل من اهل الشام قال: قال امير المؤمنين صلوات الله عليه: اول بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة، لما امر الله الملائكة ان يسجدوا لادم، سجدوا على ظهر الكوفة^(١٣).

وبعد ان توسعت حلقات الدرس في الكوفة، وتوسع استيطان العرب فيها ايام الدولة العباسية ازدهرت في الكوفة مختلف العلوم والآداب وتطور الخط العربي الكوفي بمساهمة من عرب الحيرة، وفيها عاش ابن مسعود ومعه تيار المحدثين في علم الكلام الذين سبقوا علم الحديث، وفي الكوفة ولد اتجاه الزهد والتصوف على يد الحسن البصري، وتطور علم التفسير والاخبار وجمع الشعر والابداع فيه، وفي العلوم برع جابر بن حيان في الكيمياء، اما في العلوم الدينية فقد نشأت مدارس فقهية على يد الامام جعفر الصادق مؤسس الفقه الجعفري وعلى يد الامام ابي حنيفة النعمان (٧٥-١٥٠ هجرية) شيخ مدرسة الرأي في الفقه

أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة (٤١٧)

وإبي مخنف أحد كبار المؤرخين العرب والكسائي شيخ مدرسة الصرف والنحو في الكوفة، وفي الوقت الذي أسهمت فيه الكوفة في بلورة الثقافة العربية الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية، وذلك باستعادة التراث الشعري العربي، ازداد الاهتمام بتفسير القرآن وتطور علم الكلام وعلم الأنساب، وتطور علم الكلام الذي ارتبط بتطور المجتمع أصبحت الكوفة أكثر عقلانية ونقداً وشكلت البؤرة الأولى والأساس لفكر المعتزلة العقلاني الذي تطور فيما بعد ببغداد، وفي الكوفة تأسست جماعة أخوان الصفا وخلان الوفا، الذين عرفوا بجرأتهم العلمية وأفكارهم النقدية الثابتة حين جمعوا بين الدين والفلسفة والسياسة في حركة علمية جدلية متقدمة على عصرها، وكان من مبادئهم العظيمة دعوتهم إلى حرية الفكر والرأي وعدم التعصب لمذهب من المذاهب، وقد أطلق عليهم الفيلسوف الألماني أرنست بلوخ أوائل التنويرين في الإسلام.

وشيئاً فشيئاً تعود الناس والجند والأعراب على الحياة في الكوفة والحواضر الأخرى فاستبدلوا الخيام ببيوت من القصب والبردي أولاً ثم استبدلوها ببيوت من اللبن والطين ثم الأجر ثانياً، كما كان جارياً في بلاد الرافدين، وهكذا رسمت الكوفة طريقها نحو المدينة الحضرية في القرون الستة الأخيرة، حيث بنى سعد أولاً المسجد ثم دار الإمارة وبيت المال، ثم وزعت قطع أراضي لسكنى القبائل حولها وأحيطت بعدها بخندق لحمايتها. وبمرور الزمن حدث تمازج وتزاوج وتشاقف بين العرب الفاتحين وسكان العراق من العرب وغيرهم، بحيث بقيت الجماعات التي لم تعتنق الإسلام على مسيحياتها ويهوديتها وصابئيتها، وكان المجال أمامها مفتوحاً لكي تلعب دوراً هاماً للمشاركة الفعالة في تطوير الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في الكوفة، وكل ذلك يعود إلى ازدهار مسجد الكوفة وتطور حلقات الدرس فيها، فصارت الكوفة قاعدة لشتى العلوم والمعارف والآداب والقيم النبيلة^(١٤).

المبحث الثالث

حلقات الدرس في مسجد الكوفة وأثر الإمام الصادق في ازدهار العلوم الإسلامية

اقترن ظهور الإسلام مع الدعوة إلى القراءة ومعرفة العلوم فهبط الوحي على رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ

(٤١٨)..... أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة

الأكبر * الَّذِي عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ^(١٥)، ثم جاءت بعد ذلك الآيات الكريمة الأخر التي تحث على طلب المعارف والعلوم، فقام معلم الانسانية الاول بالأمر وبلغ الرسالة، وعلم الأمة الكتابة وحث على العلم والتعلم، وعلم الناس الشرائع لما فيه صلاحهم، فأخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور العلم والمعرفة والتهذيب والتزكية، فكان كما وصفه الامام علي عليه السلام: ((اضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة))، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفتخر بان يكون معلما لهذه الأمة، فروي عنه قوله: ((بالتعليم ارسلت)) وقوله: ((انما بعثت معلما)) ^(١٦).

إن العلوم ثمرة الجهود المتواصلة للأمة الإسلامية منذ انبثاق الدعوة المحمدية المباركة، فالمسلمون بشعوبهم المتنوعة وفي ظلّ الايمان والعقيدة ذابوا في بودقة الاسلام، ووظّفوا كلّ قواهم وإمكاناتهم وركّزوا كلّ مساعيهم وجهودهم لخدمة الإسلام والعلم، وتحقيق أهدافه وأغراضه السامية، وبذلك أرسوا دعائم حضارة لاتزال البشرية مدينة لها ومستفيدة منها، ولقد كان لحلقات الدرس في عموم المساجد وخاصة في الكوفة ايام تواجد الامام الصادق عليه وسلم فيه دور مؤثر في انتشار العلم وبناء صروح الحضارة الإسلامية الكبرى، ويكفي تصفح الكتب المؤلفة في العلوم والحضارة الإسلامية لنرى كيف تلمع فيها أسماء علماء الشيعة والسنة والمذاهب الأخرى ومفكرهم ممن تخرج من حلقات الدرس في مسجد الكوفة، واما العلوم التي ظهرت ودرست في حلقات الدرس فهي كثيرة جدا، وقد كان للإمام الصادق عليه السلام وللحلقات التي اسسها دور كبير بنشر العلوم الإسلامية بشكل واسع، كما ساهم الامام الصادق عليه السلام وهذه الحلقات بإيصال العلوم الى العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية في اسيا وافريقيا وأوربا، حتى صارت الكوفة مصرا اسلاميا ثم عاصمة للخلافة الإسلامية، ثم عادت مصرا، وهي في طول حياتها بقيت صاحبة المركز العلمي الذي يساير مركزها السياسي، فاخذ اسم الكوفة والكوفيين يدخل التراث وينشر التراث والعلم، وبدأ اشعاعها العلمي والثقافي يخرج من حلقات الدرس التي اسسها الامام الصادق فيها، وتحديدًا من جامعها منذ تخطيط المدينة عام ١٧ هجرية، ولما بعث عمر بن الخطاب الصحابي عبدالله بن مسعود الى الكوفة كتب لأهلها ((اني بعثت اليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، واثرتمكم به على نفسي فخذوا عنه)) ^(١٧).

لقد ساهم الامام الصادق عليه السلام من خلال منبر الجمعة وحلقات الدرس في الكوفة وعلمائها بالنهوض بالعلوم نهضة واسعة في العصرين الاموي والعباسي، ونبغ في الكوفة علماء كبار يشار لهم بالبنان، حملوا مشعل الفكر العربي الاسلامي والثقافة والعلوم، وصارت الكوفة تنشر علومها في بغداد وغيرها من المدن الاسلامية، وكانت هي واختها البصرة اغنى الامصار الاسلامية من الناحية الثقافية والفكرية. ومن حق الكوفة ان تفاخر البصرة بمجموعة من العلوم الاسلامية والمعارف التي تجمعت في شخصية الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، الذي استقى منه ائمة المذاهب الاسلامية كثيرا من علومه. وان حلقات الدرس في الكوفة قد تلاقت مع حلقات الدرس في المدينة المنورة، كما ان الكوفة استقطبت علماء البصرة وواسط والحجاز وقت وجود الامام الصادق بها. يقول مالك بن انس لما رأى الامام الصادق يدرس في الكوفة: ((ما رأيت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر افضل من جعفر بن محمد الصادق علما وعبادة وورعا))، ويقول الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت: ((ما رأيت افقه من جعفر بن محمد))^(١٨).

إن الفضل في ازدهار مدرسة الكوفة في تلك الظروف يعود الى الامام الصادق، فمثلا يقول النجاشي: أدركت في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول: (حدثني جعفر بن محمد)، ويضيف النجاشي الذي كان عينا من عيون هذه الطائفة الشيعية وله مواقف مشهورة عدة ((وكان من خريجي هذه المدرسة لفيف من الفقهاء الكوفيين، نظير أبان بن تغلب بن رباح الكوفي، ومحمد بن مسلم الطائفي، وزرارة بن أعين، والمتنبي الكبير، وغير ذلك ممن تكفلت كتب الرجال بذكرهم والتعريف بهم. ولقد ألف فقهاء الشيعة ومحدثوهم في هذه الظروف في الكوفة (٦٦٠٠) كتاب، ولقد امتاز من بينها (٤٠٠) كتاب اشتهرت بالأصول الأربعمائة، فهذه الكتب هي التي أدرجها أصحاب الجوامع الحديثية في كتبهم المختلفة، ولم تقتصر الدراسة آنذاك على الحديث والتفسير والفقه، بل شملت علوما أخرى ساعدت على تخريج جملة واسعة من المؤلفين الكبار الذين صنفوا كتباً كثيرة في علوم متنوعة كهشام بن محمد بن السائب الكلبي الذي ألف أكثر من مائتي كتاب، وابن شاذان ألف ٢٨٠ كتاباً، وابن عمير صنف ١٩٤ كتاباً، وابن دول الذي صنف ١٠٠ كتاب، وجابر بن حيان أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية، إلى غير ذلك من المؤلفين العظام في كافة العلوم الإسلامية، فلا غرابة ان تعد الكوفة ثالث مدن العراق بعد بغداد

(٤٢٠)..... أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة

والبصرة، الحاضرة العلمية الفريدة بين الحواضر الإسلامية التي تؤمها الآلاف من طلاب العلم وهواة المعرفة^(١٩).

وكان تأثير حلقات الدرس في الكوفة على الامصار الإسلامية كبيراً جداً وواضحاً، وكانت مدينة بغداد النصيب الأكبر، فقد استطاعت بغداد عند تأسيسها اجتذاب عدد كبير من علماء الكوفة، قاموا بالتدريس في مؤسساتها العلمية، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه المشهور تاريخ بغداد عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء، وكذلك ابن الجوزي في كتابه المنتظم وعشرات غيرهم، وقد استدلل الباحثون على اتساع الحركة العلمية والثقافية في الكوفة، اعتماداً على صدور اجازة علمية برواية الحديث، كما ذكرها الشيخ النجاشي ت ٤٥٠ هج في كتابه الرجال، عند ترجمة الحسين بن احمد بن المغيرة البوشنجي^(٢٠). ان صدور مثل هذه الاجازات يعد حدثاً علمياً جديداً في تاريخ الكوفة الفكري يدل على اتساع الحركة الفكرية.

لقد كانت حلقات الدرس في الكوفة تقام بتوجيه من الامام الصادق عليه السلام في الاماكن الاتية حتى نهاية الدولة العباسية ٦٥٦ هجرية، بعد ان انتشرت لاحقا المدارس والجامعات، واهم هذه الاماكن هي:

١- مسجد الكوفة: لقد كان مسجد الكوفة ولا زال هو المعلم الاساسي لهذه المدينة العريقة، والذي تأسس بتأسيسها، وبمرور الزمن تحول من مسجد جامع الى جامعة إسلامية كبرى، ذاع صيتها في الامصار والمدن واصبحت المنارة الاولى للمسلمين.

٢- الاماكن العامة: نجد في بعض مفردات سيرة الامام علي عليه السلام مع رعيته، لم يقتصر على مسجد الكوفة في بث علومه، بل كان يطوف في اسواق الكوفة سوقاً سوقاً، لقد كانت هذه الطريقة المبتكرة للامام بمثابة المدرسة السيارة التي يدور بها الامام على ارباب المكاسب والحرف فيفيض عليهم بعلمه ومواعظه.

٣- الاماكن الخاصة لتعليم بعض أصحابه، لقد كانت للإمام علي عليه السلام والامام الصادق وللائمة من بعده ولرجال العلم اماكن خاصة للتعليم وتربية الخواص مثل ظهر الكوفة، والصحراء القريبة من الكوفة.

٤- بيت الامام علي والذي كان مدرسة يستقبل بها اصحابه وخواصه، وقد ظل هذا البيت مدرسة حتى بعد وفاته وحتى اليوم، وينقل السيد النقدي في كتابه الخصائص الزينية قوله: ((ان زينب بنت علي عليها السلام كان لها مجلس في بيت ابيها ايام اقامة ابيها في الكوفة، وكانت تفسر القرآن للنساء)) (٢١)، ومن المؤكد ان الحسن والحسين والامام الصادق عليه السلام ومن جاء من بعدهم كان لهم هذا البيت مدرسة للتعليم، الا ان التاريخ ربما اغفل هذا الامر.

ودرست في مسجد الكوفة وخاصة عندما وطأت قدما الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عدة علوم وبقيت حتى سقوط الدولة العباسية ٦٥٦هـ، وبعد غزو المغول عادت هذه الحلقات بعد ان توقفت فترة، وفما يلي بعض هذه العلوم ومن بزغ فيها من تلامذة مدرسة الكوفة العريقة:-

١- علم التفسير والقراءات:-

علم التفسير والقراءات يهتم بمعاني الكلمات وباختلاف ألفاظ القرآن الكريم من ناحية المعنى والأداء، أو بما يصطلح عليه في علم القراءات وعند اللغويين الجانب الصوتي، وفي حروف وحركات ألفاظ القرآن الكريم، وكذلك الصرف وغيرهما مما يتعلق بها، والقراءة الصحيحة المقبولة من الشاذة المردودة، وكذلك القراءات المتواترة، والقراءة الصحيحة التي صح سندها (٢٢). وقد برز في الكوفة عدد من العلماء كانوا الاساس للمتأخرين في علم التفسير والقراءة منهم، ثعلبة بن ميمون، وعبدالله بن يعفور العبدي، وحمران بن اعين، والشيخ حمزة بن حبيب بن عمارة التيمي شيخ القراءات بل هو شيخ القراء وأحد القراء السبعة للأمة.

٢- علم الحديث:

ألف علماء الكوفة كتباً لجمع الحديث، وكتباً لرواة الحديث، وكتباً لنقد الحديث، ويحوي النوع الأول المعتقدات والأنباء والأوامر والنواهي وأنواع المعاملات تتصل بالتسلسل إلى الرسول والمعصوم أو الإمام، والنوع الثاني يشتمل على أسماء الرواة، فيذكر كل راوٍ باسمه وصفاته، ويسمى هذا علم الرجال، وفي النوع الثالث يذكر فيه النظم العامة والقواعد الكلية لمعرفة الأحاديث الصحيحة من غيرها، ويسمى علم الدراية، والغرض من

(٤٢٢)..... أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة

هذه الأنواع الثلاثة واحد، هو إثبات السنة النبوية بالطريق الصحيح، ولدى المسلمين عدة كتب في هذا المجال، وأحاديث رئيسية وهم ينقلون الحديث غالباً عن الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام، ويعد الحديث المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم عند المسلمين، وكان في حلقات الدرس في الكوفة، وكما يقول الشيخ المفيد في الإرشاد: إن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه، من الثقة على اختلافهم في الآراء والمقالات وكانوا ٤٠٠٠ رجل^(٢٣)، وكان لمدرسة الكوفة حصة الأسد بين رواة علم الحديث، ومن أشهرهم إبان بن تغلب، وعبدالله بن بكير، ومعاوية بن عمار وغيرهم.

٣- علم الفقه:-

هو العلم الذي نعرف من خلاله الحكم الشرعي في كل واقعة ويحدد الموقف العملي للمكلف، ليزيل الغموض من حوله، ويصبح واضحاً للمكلف كيف يتصرف فيه، ليكون بالتالي مطيعاً وتابِعاً مخلصاً للشريعة، وإن علم الفقه هو علم استنباط الأحكام الشرعية، أو هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية لتحصيل السعادة الأخروية. والفقهاء هو من يمارس إقامة الدليل على تعيين الموقف العملي في كل واقعة من وقائع الحياة وناحية من مناحيها، وهذا ما يطلق عليه في المصطلح العلمي اسم عملية استنباط الحكم الشرعي، فاستنباط الحكم الشرعي في واقعه معناه إقامة الدليل على تحديد الموقف العملي للإنسان تجاه الشريعة في تلك الواقعة، والفقهاء هو من يقوم بعملية الاستنباط هذه، كما إن الفقهاء المعروفين في الكوفة قد تخرجوا من مدرستها، وكانوا أبرز الفقهاء المتقدمين في مدرسة أهل البيت^(٢٤)، وبرز منهم زرارة ابن اعين، ومعروف بن خربوذ، وأبو نصير المرادي، وليث البختری وغيرهم.

٤- علم الكلام:

هو من العلوم المهمة في الإسلام، وإن كانت جذوره ومبادئه موجودة في الكتاب والسنة، ويبحث فيه عن إثبات أصول الدين الإسلامي أي الألوهية، التي تشمل التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، بالأدلة التي تفيد اليقين وتسبب الاعتقاد، ويتكفل هذا العلم الإسلامي بدراسة المسائل الاعتقادية - أصول الدين - وإثباتها بالأدلة والحجج، ومناقشة الأقوال والآراء المخالفة لها، ونقد الشبهات المطروحة حولها ودفعها بالحجة

أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة (٤٢٣)

والبرهان، ومعرفة أصول الدين معرفة علمية قائمة على أساس من الدليل والبرهان، وقد ظهر هذا العلم منذ القرن الأول الاسلامي وحتى نهاية الدولة العباسية في الكوفة، كما ظهرت التيارات والعقائد بالإضافة الى ظهور فلسفات وثقافات جديدة، لم تكن مألوفاً في المجتمع الاسلامي، والتي حملها الدهريون والملاحدة والزنادقة، ضمن منهج لا يلتقي مع نظرة الاسلام وفلسفته للكون والحياة، فتصدت حلقات الدرس والتي كانت لها اليد الطولى في خوض تلك المعارك، ومناظرة اهل العقائد الفاسدة والفرق الشاذة، ومن اشهر هؤلاء المتكلمين، زرارة بن اعين، وهشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم وغيرهم.

٥- علوم اللغة العربية:-

يكفي أن نعرف أن الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام هو مؤسسهُ الأول، وأن تلميذه أبا الأسود الدؤلي هو الذي عمل على توسعتها وتدوينها، وقد واصل علماء الكوفة بعد ذلك الجهود الحثيثة في سبيلها، ويراد بعلوم اللغة التدقيق بألفاظ اللغة من حيث أصولها، واشتقاقاتها ومعانيها، وهو يعد بحق من العلوم الإنسانية التي ساهمت بشكل مباشر في إقامة صرح الحضارة الإسلامية، وقد ظهر في ميدان هذا العلم المهم جملة واسعة من علماء الشيعة، خلفوا آثاراً مهمة أصبحت زادا لطلاب العلم والمعرفة، ومن هؤلاء الأفاضل أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي الأزدي سيد أهل الأدب، وهو أول من ضبط اللغة، وأول من استخراج علم العروض إلى الوجود، فهو أسبق العرب إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم، فألف كتابه العين الذي جمع فيه ما كان معروفاً في أيامه من ألفاظ اللغة، وأحكامها، وقواعدها، ورتب ذلك على حروف الهجاء وهناك علماء آخرون، كما ان الفضل في ظهور مدرسة الكوفة النحوية يعود الى تلامذة الامام الصادق ومن تتلمذ على يدهم في العصور اللاحقة، وقد برز في هذا المجال ابو جعفر الرؤاسي الكوفي ومعاذ بن مسلم بن ابي سارة وغيرهم. يقول السيوطي في المزهري عن ابي جعفر الرؤاسي: ((وابو جعفر هذا هو استاذ الكسائي وهو اول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو)) (٢٥).

٦- علم اصول الفقه:-

هو العلم الذي يهتم ضمن ما يهتم به بتحرير مجال النزاع، والكشف عما هو وهمي أو لفظي أو مصطنع من الخلافات، وبما أن كثيراً من الخلافات بين المذاهب هي من هذا

القبيل، فإن علم أصول الفقه كفيل بإسقاطها أو إرجاعها إلى حجمها الحقيقي من غير تورم ولا تضخم، وما يشتمل عليه هذا العلم من الحملات العدائية المتبادلة ومن الأساليب والتعابير الاتهامية التجريحية، كتلك التي تعج بها المؤلفات الكلامية والتاريخية وكتب علوم القرآن والحديث، وانصبابه أساسا على أصول الأحكام وطرق استثمارها، وهي قضايا يغلب عليها الطابع العملي الذي يتقارب فيه الناس جميعا، فضلا عن المسلمين وعلماء المسلمين، ويعتبر علم أصول الفقه من أهم العلوم الإسلامية التي يعتمد عليها الفقيه في استنباط الحكم الشرعي، وأشهر علماء أصول الفقه هو هشام بن الحكم، ويونس بن عبد الرحمن، مولى ال يقطين الذي صنف كتاب (اختلاف الحديث)^(٢٦)، ولهذا لا تكاد تجد خلافا في مجال الأصول بين السنة والشيعة إلا من قبيل ما يوجد عادة بين الشيعة أنفسهم، وبين أهل السنة أنفسهم، وقليل جدا ما يبدو منها عميقا ومستعصيا على التفاهم والتقارب. يرى كثير من العلماء الإمامية أن اللبنة الأولى للفكر الأصولي عند المسلمين ترجع إلى الإمام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق، وأن أول من أسس أصول الفقه وفتح بابه ووثق مسأله هو الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام، ثم من بعده ابنه الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام، وقد أمليا على أصحابهما قواعد، وجمعوا من ذلك مسائل رتبها المتأخرون على ترتيب المصنفين فيه بروايات مسندة إليهما متصلة الإسناد.

٧- العلوم الطبيعية:-

لم يكن اتجاه حلقات الدرس في الكوفة مختصا بالعلوم العقلية كالكلام والقرآن والتفسير واللغة والفلسفة والمنطق فحسب، بل امتد نشاطهم وحركتهم الفكرية إلى العلوم الطبيعية، مثل الكيمياء والطب والرياضيات وغيرها، فتجد هذا النشاط بارزا في مؤلفاتهم طيلة القرون الماضية، ويعود الفضل بذلك للإمام الصادق عليه السلام الذي وضع اللبنة الأولى لهذا العلم، ومن مشاهير علمائهم في القرون الأولى جابر بن حيان الذي تتلمذ على يد الإمام الصادق عليه السلام والذي كان خزانة العلوم الالهية والمادية، فنشر من فيضه الشيء الكثير من المعارف الكونية والطبيعية، وهي ما زالت الى هذا اليوم مشروعا فراتا يستقي منه العلماء وجهابذة البحث والاستقراء^(٢٧)، وهشام بن الحكم ت ١٩٩هـ له آراء في الأغراض كاللون والطعم والرائحة، وقد أخذ منه إبراهيم بن سيار النظام، ويعقوب بن إسحاق بن

أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة(٤٢٥)

أبي سهل بن نوبخت، المتقدم في الحكمة والنجوم، ويعد جابر بن حيان، من أشهر علماء العراق وأقدمهم الذين برزوا في علم الكيمياء، وهو أول من أشار إلى طبقات العين قبل يوحنا بن ماسويه ت ٢٤٣هـ وغيرهم.

لقد كانت مدينة الكوفة وحلقات الدرس فيها والتي كان نواتها أئمة أهل البيت وخاصة الإمام الصادق عليه السلام والصحابة الذين هبطوا أرضها، وكان عددهم ٣٠٠ من أصحاب الشجرة وسبعين من أهل بدر، نزلوا في الكوفة وجامعها، كانت مركز إشعاع لبقية الأوصياء الإسلامية، فعد جامع الكوفة وحلقاته أقدم مؤسسة علمية في تاريخ الكوفة نشرت العلوم والثقافة بكل أنواعها، وخير دليل ما ذكرناه أعلاه من الحلقات التي أغناها الإمام الصادق عليه السلام والتي كان لها الفضل الكبير في نشر أنواع العلوم، وقد استطاع علماء الكوفة الذين تخرجوا من حلقاتها النهوض بالعلم نهضة واسعة من العصر الإسلامي الأول وإلى اليوم. إن الكوفة على الرغم من حملها لواء العلوم الإسلامية، فقد كان علماءها يقصدون البصرة، ويأخذون من علمائها وهذا ما نطلق عليه اليوم التبادل الثقافي بين المدرستين، ونشأت بين علماء الكوفة وعلماء المسلمين صلات فكرية واسعة النطاق، وكان لعلماء الكوفة حظوة عند الخلفاء أكثر مما كان للبصريين، وتشير النصوص إلى أنه كان في مدينة الكوفة نساء عالمات محدثات في القرن الخامس والسادس الهجري ساهمن بنشر العلوم، وإن ست العشيبة بنت أحمد بن سعيد المهدي كانت فاضلة عالمة محدثة مجازة في الرواية سماعاً عن جدها لامها أبي الغنائم محمد بن علي بن ميمون ت ٥١٠هـ، ويروي عنها النسابة عبد الحميد بن التقي عبد الله عن منزلها بالكوفة في ١٣ شوال عام ٦٥٦ هجرية أمورا مهمة (٢٨).

هوامش البحث

- (١) السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، ابو جعفر محمد بن ادريس الحلبي ت ٥٩٨ هج، مؤسسة النشر الاسلامي، قم المقدسة ١٤١٠هـ: ج ١ ص ٤٧٩.
- (٢) مسجد الكوفة في التاريخ، د. حسين امين، مجلة الكوفة، العدد الخامس، ٢٠٠١م: ص ٤٠.
- (٣) نشأة المدينة العربية الاسلامية، هشام جعيط، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٩م: ص ٣٤١.
- (٤) الكوفة بين البعد التاريخي والتطور العلمي، د. حسن عيسى الحكيم، العارف للمطبوعات، النجف الاشرف، ٢٠١١م: ص ٩٨.
- (٥) مفاتيح الجنان العرب، عباس القمي، تعريب السيد محمد رضا النوري النجفي، دار اليوسف بيروت لبنان، د.ت ص ٣٨٨.
- (٦) الرجال، ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هج، المطبعة الحيدرية النجف، ١٩٦١م: ص ١٥١.
- (٧) الكنى والالقب، عباس القمي، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٥٩م ج ١ ص.
- (٨) المسجد الجامع في الكوفة التاريخ والهوية والدور الكبير، السيد عبد الامير المؤمن، مركز هاني بن عروة للدراسات، الكوفة ٢٠١٣م: ص ١٧٤.
- (٩) سورة البقرة: ١١٤.
- (١٠) دور المساجد في الإسلام، علي محمد مختار - رابطة العالم الإسلامي، بيروت ١٤٠٢هـ: ص ٣٥.
- (١١) فضل واعمال مسجد الكوفة، اصدار مسجد الكوفة والمزارات الملحقه به، ٢٠١٣م: ص ٢٥.
- (١٢) تاريخ النجف المنتخب من كتاب تحفة العالم، السيد جعفر بن محمد باقر بحر العلوم، منتدى النشر، النجف الاشرف، ١٤٣٢هـ: ص ٢٣.
- (١٣) تفسير العياشي، ابي النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي، ت ٣٢٠ هج، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٤٢٢ هج: ج ١ ص ٣٤.
- (١٤) اعلام الكوفة من الصحابة والتابعين في القرن الهجري الاول، د. محمود محمد الموسوي، امانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقه به، ٢٠١٤م: ص ١٠.
- (١٥) سورة العلق ١- ٥.
- (١٦) نهج البلاغة، د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت ٢٠٠٤، الخطبة ١٥١: ص ٢١٠.
- (١٧) الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد الزهري ت ٢٣٠ هج، دار صاد بيروت ١٩٥٧م: ج ٦ ص ١٣.
- (١٨) تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن احمد ت ٧٤٨ هج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، ١٩٥٧م: ج ١ ص ١٥٧.
- (١٩) معالم النجف الاشرف، د. عباس الترجمان، دار الرافدين، ٢٠١٢م، ص ١٣.
- (٢٠) (الرجال او الفهرست، ابو العباس احمد بن علي النجاشي ت ٤٥٠ هج، مكتبة الداودي، قم المقدسة ١٣٩٨ هج، ص ٥٤).

- (٢١) زينب الكبرى، جعفر النقدي، مؤسسة الامام الحسن، قم المقدسة، ١٤١١هـ، ص ٥٤.
- (٢٢) منجد المقرئين ومرشد الطالبين، محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ، ص ٩.
- (٢٣) الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، ابو عبد الله محمد بن محمد بن نعمان العكبري البغدادي ت ٤١٣هـ، طبعة مؤسسة ال البيت، قم المقدسة، ١٩٩٣م: ج ٢، ص ١٧٩.
- (٢٤) مدرسة اهل البيت في المدينة المنورة والكوفة، د. عبد الجبار الرفاعي، مؤسسة الهدى الدولية قم، ط١، سنة ١٤٢٢هـ: ص ٨٠.
- (٢٥) تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، حسن الصدر، طبعة انتشارات اعلمي، ايران طهران. د.ت، ص: ٦٣
- (٢٦) الرجال، احمد بن علي النجاشي، طبعة جامعة المدرسين قم المقدسة، ١٤٠٧ هـ: ص ٤٣٣
- (٢٧) الامام الصادق ملهم الكيمياء، د. محمد يحيى الهاشمي، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٠م: ص ١٥٨
- (٢٨) اعيان الشيعة، الاميني محسن الحسيني العاملي ت ١٣٧١هـ، مطابع الاتقان والانصاف، بيروت، ١٤٠٣هـ، ج ٣٣: ص ٤٣١.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ١. اعلام الكوفة من الصحابة والتابعين في القرن الهجري الاول، د. محمود محمد الموسوي، امانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقه به، ٢٠١٤م.
- ٢. اعيان الشيعة، الاميني محسن الحسيني العاملي ت ١٣٧١هـ، مطابع الاتقان والانصاف، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- ٣. الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، ابو عبد الله محمد بن محمد بن نعمان العكبري البغدادي ت ٤١٣هـ، طبعة مؤسسة ال البيت، قم المقدسة، ١٩٩٣م.
- ٤. الامام الصادق ملهم الكيمياء، د. محمد يحيى الهاشمي، مطبعة النجاح، بغداد ١٩٥٠م.
- ٥. الرجال، ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ، المطبعة الحيدرية النجف، ١٩٦١م.
- ٦. الرجال، احمد بن علي النجاشي ت ٤٥٠، طبعة جامعة المدرسين قم المقدسة، ١٤٠٧هـ.
- ٧. السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، ابو جعفر محمد بن ادريس الحلبي ت ٥٩٨هـ، مؤسسة النشر الاسلامي، قم المقدسة ١٤١٠هـ.
- ٨. الطبقات الكبرى، ابو عبدالله محمد بن سعد الزهري ت ٢٣٠هـ، دار صاد بيروت ١٩٥٧م.
- ٩. الكنى واللقاب، عباس القمي، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف ١٩٥٩م.

(٤٢٨)..... أثر الإمام الصادق عليه السلام في ازدهار العلوم الإسلامية وحلقات الدرس في مسجد الكوفة

١٠. الكوفة بين البعد التاريخي والتطور العلمي، د. حسن عيسى الحكيم، العارف للمطبوعات، النجف الاشرف، ٢٠١١م.
١١. المسجد الجامع في الكوفة التاريخ والهوية والدور الكبير، السيد عبد الامير المؤمن، مركز هاني بن عروة للدراسات، الكوفة ٢٠١٣م.
١٢. تاريخ النجف المنتخب من كتاب تحفة العالم، السيد جعفر بن محمد باقر بحر العلوم، منتدى النشر، النجف الاشرف، ١٤٣٢هـ.
١٣. تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، حسن الصدر، طبعة انتشارات اعلمي، ايران طهران. د.ت.
١٤. تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن احمد ت ٧٤٨ هج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، ١٩٥٧م.
١٥. تفسير العياشي، ابي النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي، ت ٣٢٠ هج، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٤٢٢هـ.
١٦. دور المساجد في الإسلام، علي محمد مختار - رابطة العالم الإسلامي، بيروت ١٤٠٢هـ: ص ٣٥.
١٧. زينب الكبرى، جعفر النقدي، مؤسسة الامام الحسن، قم المقدسة، ١٤١١هـ.
١٨. فضل واعمال مسجد الكوفة، اصدار مسجد الكوفة والمزارات الملحقه به، ٢٠١٣م.
١٩. مدرسة اهل البيت في المدينة المنورة والكوفة، د. عبد الجبار الرفاعي، مؤسسة الهدى الدولية قم، ط١، سنة ١٤٢٢هـ.
٢٠. مسجد الكوفة في التاريخ، د. حسين امين، مجلة الكوفة، العدد الخامس، ٢٠٠١م.
٢١. معالم النجف الاشرف، د. عباس الترجمان، دار الرافدين، ٢٠١٢م.
٢٢. مفاتيح الجنان المغرب، عباس القمي، تعريب السيد محمد رضا النوري النجفي، دار اليوسف بيروت لبنان، د.ت.
٢٣. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ.
٢٤. نشأة المدينة العربية الاسلامية، هشام جعيط، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٩م: ص ٣٠٤١.
٢٥. نهج البلاغة، د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت ٢٠٠٤م.